**دواعي الإصلاح ومرجعيته ومجالاته عند ابن باديس**

 أ.مهتورحملاوي

جامعة 20أوث 1955- سكيكدة-

**مقدمة :**

كثيرة هي الحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي في بلاد المشرق والمغرب في الحديث والمعاصر، وقد حاول أصحابها أن يقفوا على أسباب الضعف والتخلف التي تعيشها مجتمعاتهم ، وقد ذهبوا مذاهب شتى في الإصلاح، والذي يهمنا من أمر هذه الحركات الآن هو كونها تكشف لنا بأن الإصلاح لا ينطلق من فراغ ولا يتجه إلى فراغ ، فلكل مشروع اصلاحي منطلقاته وخلفياته ومرجعيته وأهدافه التي يناضل من أجل تحقيقها ، مستخدما في ذلك وسائل شتى ، والحديث عن الإصلاح يعني التسليم دائما بوجود واقع اجتماعي ينبغي إصلاحه والعمل على تغييره ، وهو ذلك الواقع الذي يبدي المصلح عدم رضاه عنه ، ويبدي استعداده للبحث عن حلول لمشكلاته الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية عموما أملا في تغيير وضعه نحو الأفضل .

 وانطلاقا من كل ما قلناه سابقا ولأننا نعتزم من خلال مداخلتنا هذه الحديث عن الإصلاح عند عبد الحميد بن باديس، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن واقع المجتمع الجزائري الذي اقتنع ابن باديس بضرورة إصلاحه وعن مرجعية الإصلاح لديه والمجالات التي يجب أن تطالها عملية الإصلاح فمن هوابن باديس ؟ وماهي العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته ؟ وما مفهوم الإصلاح عنده ؟ ماهي دواعي ومرجعية الإصلاح عند ابن باديس ؟ وماهي حدود الإصلاح ومجالاته عنده؟ ماهو منهج ابن باديس في الإصلاح ؟ وماهي الوسائل التي يراها كفيلة بإنجاح مشروعه الإصلاحي ؟

**أولا : حياة ابن باديس وعوامل تكوين شخصيته :**

1. **حياتـه** :

 هوعبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ولد سنة 1889م، وكان الولد البكر لأبويه ،وهو من أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه ، حفظ ابن باديس القرآن على الشيخ محمد المداسي وأتم حفظه في السنة الثالثة عشر من عمره ومن شدة إعجاب المؤدب بذكائه وسيرته الطيبة قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير، وفي سنة 1903م خيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقا آخر، فأختار طريق سلفه وهو طريق العلم والجهاد فاختار له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الإسلامية والعربية ، وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي الذي كان منتميا إلى الطريقة التيجانية ، فبدأ يعلمه بجامع سيدي محمد النجار مبادئ العربية والمعارف الإسلامية ويكونه تكوينا علميا أخلاقيا.

 تزوج ابن باديس وعمره خمسة عشر سنة، وأنجب ولدا أسماه عبده إسماعيل توفي وعمره سبعة عشر عاما ، وهذا الاسم له دلالة ، لأن الابن ولد تقريبا في السنة التي توفي فيها محمد عبده ، أو في التي بعدها ، والشيخ محمد عبده زار الجزائر العاصمة ومدينة قسنطينة سنة 1903وعمرابن باديس أربعة عشر عاما فمن الممكن أن يكون قد اتصل به أو سمع عنه ، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار تردد ابن باديس الشاب على الجامع الكبير، وإمامته بالناس في صلاة التراويح، وهو المسجد الذي زاره محمد عبده في قسنطينة .

 سافرابن باديس إلى تونس في سنة 1908م وعمره تسعة عشر عاما ، وانتسب إلى جامع الزيتونة، وتخرج بشهادة التطويع في سنة 1911/1912 وعمره ثلاث وعشرون سنة، ودرّس لمدة سنة في جامع الزيتونة ، وبعد عودته إلى الجزائر سافر منها حاجا سنة 1913 ، وبعد عودته من الحج انشغل بشتى جوانب المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والدينية والعلمية والسياسية التي تتخبط فيها الجزائر والعالم الإسلامي إلى أن توفي في 16أفريل سنة 1940م (1).

**2- عوامل تكوين شخصيته** : يمكننا إجمال العوامل التي أثرت في تكوين شخصية ابن باديس عمليا وعلميا في ما يلي :

العامل الأول : ويتمثل في أسرته وخصوصا أباه الذي رباه ووجهه وجهة أخلاقية وعملية .

العامل الثاني: ويتمثل في البيئة الدراسية وتأثير المربين من المعلمين والشيوخ الذين نموا استعداده وتعهدوه بالتوجيه والتكوين، ويعترف ابن باديس بفضل رجلين عليه وهما حمدان لونيسي القسنطيني ومحمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة .

العامل الثالث: وهو الشعب الجزائري، وما ينطوي عليه من أصول الكمال واستعدادات عظيمة للخير ، ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية على أنها معوانة على الخير منطوية على استعدادات الكمال وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل .

العامل الرابع : ويتمثل في زملاء ابن باديس من العلماء الأفاضل الذين ساعدوه منذ فجر النهضة وأيدوه وناصروه حتى سطع نجمه، أمثال الشيخ العربي التبسي والشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العقبي في أول أمره والشيخ مبارك الميلي وغيرهم .

العامل الرابع : وهو عامل العوامل كلها ويتمثل في القرآن الكريم الذي كرس له ابن باديس ربع قرن من حياته ، وقد صاغ نفسه وهز كيانه، واستولى على قلبه فاستوحاه في منهجه طوال حياته، وترسّم خطاه في دعوته ، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ، ويتأمله فيعب منه ويستمد أمراض القلوب ، وأدواء النفوس .

**ثانيا : مفهوم الإصلاح ودواعيه عند ابن باديس:**

**1- مفهوم الإصلاح:**

 إنه لا مناص لنا على ما يبدو من العودة إلى التعريف اللغوي لكلمة الإصلاح فاللغة تفرض نفسها علينا كسلطة مرجعية ينبغي علينا احترامها ، وعن التعريف اللغوي للفظ الإصلاح نقول بأنه قد ورد في لسان العرب لابن منظورأن لفظ الإصلاح مشتق من الفعل صلح يصلح صلاحا وصلوحا والصلاح ضد الفساد (2) .

وقد جاء في تفسير ابن باديس قوله :" الإصلاح هو إرجاع الشئ إلى حالة الاعتدال إزاء ما طرأ عليه من فساد، والإفساد هو إخراج الشيء عن حاله اعتداله بإحداث اختلال فيه فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة وإفساد البدن بتناول ما يحدث به من ضرر وإفساد النفس بمقاربة المعاصي والذنوب، وهكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد في كثير من الأحوال غير أن الاعتدال بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم"(3).

 ويتضح لنا من خلال هذا النص لابن باديس أن الإصلاح عنده يشير إلى التغيير نحو الأفضل، ويراهن ابن باديس على إصلاح النفس وتربيتها وتهذيبها لبلوغ الإصلاح الثقافي والإجتماعي والسياسي .

**2- دواعي الإصلاح :**

 لقد كان لعودة الغزو الأوربي للمجتمعات العربية والإسلامية تأثيره السلبي على واقع هذه المجتمعات، وقد كانت الجزائر من بين الدول التي استهدفها الاستعمار الفرنسي وحاول طمس معالم هويتها وشخصيتها وهذا بالقضاء على دينها ولغتها ، وقد تفنن الاستعمار في نشرالبدع والضلالات بهدف إفساد العقيدة، بعدما أدرك أنها مصدر قوة المسلمين وأساس وحدتهم وتلاحمهم ، وقد تفطن ابن باديس لمكائد الاستعمار وخططه الدنيئة التي كان من نتائجها تدني أوضاع المجتمع الجزائري على كل الأصعدة والمستويات .

 لقد لاحظ ابن باديس حالة الضعف والتفكك والانحطاط التي يعيشها المجتمع الجزائري فعبر عنها بقوله :" انحطاط في الخلق ، وفساد في العقيدة ، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة ، وتعاكس في الوجهة ، وافتراق في السير. حتى خارت النفوس القوية ، وفترت العزائم المتقدة ، وماتت الهمم الوثابة ، ودفنت الآمال في صدور الرجال ، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت ، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة ، وانصبت علينا المصائب من كل جانب "(4).

 ولم يقف ابن باديس من الوضع المأساوي للمجتمع الجزائري موقف المتفرج فقد كان هذا الوضع سببا مباشرا في ظهور فكرة الإصلاح لديه ، ولذلك يمكن القول بأن ظهور فكرة الإصلاح عند ابن باديس تعتبر ضرورة تاريخية خاصة في ظل سيطرة الطرق الصوفية على مجريات الحياة الفكرية ، فساد الظلام وخيم الجمود وكثرت البدع ، وتعطل الفكر فانعكس ذلك سلبا على كل الطاقات الاجتماعية الأخرى(5).

 ولم يتردد ابن باديس وهو يرى انتشار البدع ، والخرافات ، والضلالات والعودة إلى الجاهلية في المجتمع الجزائري في وضع مشروعه الإصلاحي، الذي آمن من خلاله أن سبب ضعف المسلمين هو ابتعادهم عن جوهر الدين (6).

 لقد كان الداعي إلى الإصلاح عند ابن باديس نابعا من صميم المجتمع الجزائري الذي يعيش ضعفا وتمزقا وتشتتا وضياعا بسبب هيمنة الاستعمار والابتعاد عن الدين، ولقد كان ابن باديس محظوظا لظهور حركة الإصلاح والنهضة في المشرق العربي، وعودة الاتصال الفكري والثقافي بين المغرب والمشرق ، وهذا عن طريق الصحافة والكتب والمجلات ، والحج الذي تقع فيه مؤتمرات واجتماعات للنظر في أزمة المسلمين (7) .

 وقد أعلن ابن باديس ثورته الفكرية والدينية، مستهدفا إصلاحات إجتماعية وسياسية لتحقيق الوثبة الحضارية المنشودة مباشرة فور عودته من الحج ، و كان منطلق ابن باديس الأول في رحلته الجهادية والاجتهادية هو تنبيه الوجدان وإيقاظ الضمير وترسيخ العقيدة الصحيحة وإذكاء الروح النقدية (8) ، إيمانا منه باستحالة القيام بأي عمل وإحداث أي تغيير على المستويين الاجتماعي والسياسي ما لم تتحرر الضمائر وتصلح النفوس وتتصحح المفاهيم الدينية الخاطئة .

**ثالثا : مرجعية الإصلاح عند ابن باديس :**

 إن مرجعية الإصلاح عند ابن باديس ليست مرجعية تقوم على مبادئ بشرية أرضية سياسية أو غيرها ، وإنما هي مرجعية ربانية أساسها مبادئ الإسلام ، إسلام السلف الصالح (9) ، وهذا ما نلمسه في قول ابن باديس:" من مبدئنا في الإصلاح الديني من ناحية العقائد والأخلاق والأفكار والأعمال تصحيحا وتهذيبا وتنويرا وتقويما ، كل ذلك في دائرة الإسلام كما نزل به القرآن ، وبينته السنة ، ومضى عليه - علما وعملا السلف الصالح من هذه الأمة (10) .

 وهنا تنكشف لنا دعوة ابن باديس الصريحة إلى العودة إلى المصادر السلفية الأصلية من كتاب وسنة وتاريخ صحيح، لتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى المسلمين المعاصرين، وإعادة صياغة النهج السلفي في التفكير الإسلامي ، وهذه المرجعية التي يدعو إليها ابن باديس هي المرجعية نفسها التي دعا محمد عبده إلى العودة إليها والتمسك بها ، فقد دعا محمد عبده إلى التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية في أحكام الدين وعدم السقوط في فخ التقليد والانسياق مع العرف (11) .

 إنه لامناص للمسلمين في نظر ابن باديس من العودة إلى القرآن باعتباره ذلك الكتاب الكوني الموسوعي والشمولي ، الذي يتضمن ويستوعب الحقائق كلها ، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه، ولقد جاء القرآن عند أول نزوله بالعجائب والمعجزات وأظهر قدرته الفائقة على إصلاح أحوال البشر، وإنه الأولى والأجدر والأقدر على الإتيان بتلك المعجزات في كل زمان ، إذا وجد ذلك النوع من العقول القادرة على فهمه مثلما فهمته عقول أصحاب الهمم الرفيعة وعملت على نشره وتعميمه ، فالقرآن لا تظهر آثاره في إصلاح النفوس وتهذيبها إلا إذا تولته و تكفلت به عقول كعقول السلف، وعملت على تطبيقه نفوس سامية متفتحة ، أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي ؛ فإنه لا يفيدهم شيئا ولا يفيد لهم شيئا ، بل يزيدهم بعدا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا في التغلب عليهم .

 هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن ، حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم فأضاعوا هديه وبلاغه ، وأبعدوا الأمة عنه وصرفوها عن حكمه وأسراره (12).

 إن العودة إلى القرآن التي يقصدها ابن باديس هي تلك العودة التي تتحقق من خلالها القراءة المستنيرة للقرآن الكريم ، وقد جسد ابن باديس رؤيته هذه من خلال تفسيره للقرآن الكريم .

**رابعا : مجالات الإصلاح عند ابن باديس :**

**1- العقل :**

 قام ابن باديس في ميدان العقل بثورة فكرية دعى من خلالها إلى الإيمان الصحيح وتحرير الفكر من قيود التقليد ومحاربة رواسب عصور الانحطاط ،وأهاب بالعقل أن يستيقظ ويهتدي بالعلم والمعرفة ودلائل الحوادث لأنه لم يخلق ليقاد كما تقاد البهيمة ، ولم يسلم ابن باديس من محاربة المتحجرين والجامدين ولكن عزيمته لم تضعف ولم يستسلم يوما (13).

 على أن ابن باديس لم يجعل العقل حاكما على كل شيء ، ومعيارا للتحسين والتقبيح في كل شيء ، ولذا نبه إلى أن العقل له حد يقف عنده وينتهي إليه ، وحذر من خطر الثقة المطلقة به (14) .

 ويبين ابن باديس مهمة العقل في خلق الله فيقول :" هي النظر والبحث والتعليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العملية والعلمية" (15) ، أما في شرع الله فمهمته كما يقول ابن باديس :"هي فهم نصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف ، وتحصيل الأحكام وحكمها ، والعقائد وأدلتها ، والآداب وفوائدها ، والمفاسد وأضرارها ، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه ، فوقف عنده ، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين " (16) ، وأما عمل العقل في كتاب الله فهو :" التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه ، على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها ، وما جاء من التفاسير المأثورة ، وما نقل من فهوام الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم ، المشهود لهم بذلك من أمثالهم ..." (17).

**2- الديـن :**

 نعى عبد الحميد بن باديس على المسلمين جمودهم وتزييفهم للتعاليم الإسلامية السمحة وعاب على العلماء مبالغتهم في ملاحظة أدق تفاصيل العبادات وميلهم إلى الافتراضات الوهمية التي يضيع العمر في تحديدها وتحليلها ، حتى أدى ذلك إلى النفور أحيانا واستثارة السخرية من أعداء الإسلام أحيانا أخرى (18).

 وقد دعا ابن باديس العلماء إلى القيام بدورهم التربوي والإرشادي والاجتهادي الريادي في المجتمع، لأنهم المرجع في العلم والفتوى وعليهم تقع مسؤولية شحذ الهمم وتنوير العقول (19).

 وبقدر نشاط العلماء في نظر ابن باديس تكون قوة المجتمع أو ضعفه ، سعادته أو شقاءه ،ارتفاعه أو انحطاطه ، ولذلك فلا صلاح للمجتمع الإسلامي إلا بصلاح العلماء ، يقول ابن باديس :" فإنما العلماء من الأمة بمنزلة القلب ، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله " (20) .

 ومن هذا المنطلق فقد كان ابن باديس يدعو العلماء والوجهاء إلى التضحية والإقدام وتحمل المسؤولية ، ويحذرهم من القعود والخضوع والاستكانة والهروب من الواقع (21).

 ولقد كان ابن باديس حريصا على إصلاح الخطاب الديني الدعوي والارتقاء به إلى مستوى تطلعات المسلمين وهذا من خلال مسايرته لمستجدات الحاضر ومقتضياته، فكان يحث الأئمة والدعاة والخطباء على مراعاة مقتضى الحال في خطبهم ووعظهم وتذكيرهم ،وفي ذلك يقول :" ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال، تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال"(22).

 وقد حث ابن باديس أهل العلم على ربط الناس بأدلة القرآن والسنة في فتاواهم وإرشادهم، قال: "ومما ينبغي لأهل العلم أيضا إذا أفتوا وأرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ، ويذيقوهم حلاوته، ويعرفونهم منزلته ويجعلوه منهم دائما على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس ، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إذا كنتم للخير تريدون" (23)

 ولقد كان ابن باديس طموحا ، وصاحب بعد نظر ، وصاحب دعوة إلى الوحدة الإسلامية ولم شمل المسلمين ، والذي يؤكد صحة ذلك هو سعيه إلى إنشاء جمعيات تجمع شمل العلماء وتقرب بينهم وتوجه جهودهم ، فقد حاول في عام 1924م تأسيس جمعية باسم الإخاء العلمي ؛ وهو ما لم يتحقق له ، ولكن طموحه ومسعاه تجسد في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م .

 وإذا كان ابن باديس يستهدف إصلاح المجتمع الجزائري، وهذا من خلال مشروعه الإصلاحي الشامل ، الذي نفذه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فهذا لا يعني أنه صاحب نظرة ضيقة ، أو قومية متقوقعة ومنغلقة على نفسها ، فقد كان تفكير ابن باديس وانشغاله ممتدا إلى خارج الحدود الجغرافية للجزائر، فقد كان طموحه هو أن يرى المسلمين وهم يلتفون حول أهل العلم والخبرة (جماعة المسلمين) ويحتكمون إليهم في قضايا وشؤون حياتهم (24) .

 ولقد كان ابن باديس يدرك جيدا صعوبة وخطورة المهمة التي أخذها على عاتقه ألا وهي مهمة إعداد جيل من الرجال يكون منهم في المستقبل علماء مصلحون، يحملون الدعوة، وينشرونها ، ويربون عليها ويدافعون عنها ويضحون من أجلها ، وبذلك يتحقق الهدف من الإصلاح (25) .

**3- التعليم :**

 استهدف ابن باديس من خلال التعليم فئة الناشئة والشباب، لأنهم رجال وقادة المستقبل ، وقد عمل على فتح المدارس والجمعيات التربوية والكشفية، واجتهد في تقديم الدروس والمحاضرات(26)، ودليل اعتناء ابن باديس بالشباب هوأنه :"قد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونواد باسم الشباب والشبيبة والشبان ، ولا تجد شابا إلا - ناذرا- إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات وشعار الجميع : الإسلام، العروبة ، الجزائر" (27).

 أما العنصر الثاني الذي استهدفه ابن باديس من وراء اهتمامه بمجال التعليم فهو المرأة ، إدراكا منه بأن للمرأة وظيفتها العظيمة في تربية النشء وإصلاح المجتمع ولذلك نجده يلح على ضرورة تعليمها وتفقيهها في دينها، وحسن معاملتها حتى لا تكون ضحية من ضحايا الجهل والفساد ، ولقد ذهب أعداء الإسلام من المستغربين إلى الاعتقاد بأن ضعف المرأة وتخلفها وجهلها سببه التمسك بالدين فبادروا بإرسال بناتهم إلى مدارس التغريب ليتخرجن بغير فكر الأمة وهويتها ويصبحن أدواة في يد الاستعمار والتغريب ، ومعاول هدم للدين وكم ستكون خطورة ذلك على المجتع إذا ما تحولن إلى معلمات لجيل المستقبل .

 وقد وعى ابن باديس هذه الخطورة، وأهمية التكوين الصحيح للمرأة في إصلاح الأمة فأوجب تعليمها ، ودعا إلى تكوينها تكوينا يقوم على العفة وحسن تدبير المنزل وتربية الأولاد ، وقد حمل ابن باديس مسؤولية جهل المرأة لأوليائها ولعلماء الأمة الذين يجب أن يعلموا رجال الأمة ونساءها (28).

 ويحتل إصلاح المرأة أهمية بالغة في مشروع ابن باديس الإصلاحي ، وهو يؤكد ذلك بقوله :" إذا أردنا أن نكون رجالا ، فعلينا أن نكون أمهات دينات ، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا وتربيتهن تربية إسلامية . وإذا تركناهن على ماهن عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال"(29).

 إن البيت هو المدرسة الأولى ، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق ، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن (30) .

 ويرى ابن باديس أن النهضة الحقيقية والتقدم الحقيقي لا يتحقق إلا من خلال إشراك االمرأة في معترك الحياة الاجتماعية مع التقيد بإطار العمل الذي حدده الإسلام

ولقد بذل ابن باديس في سبيل تعليم المرأة جهودا جبارة وخطا خطوات عملية بعيدة ، فقد فتح للفتيات أبواب الدراسة ، وخص النساء بالدروس والمحاضرات مكثرا من ذكر القدوات من نساء السلف الصالح من الصحابيات وغيرهن (31) .

 ولقد بلغ حرص ابن باديس على تعليم المرأة إلى الدرجة التي جعلته يتصل شخصيا بالمواطنين ويحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة (32) .

**4- الثقافة :**

 لم يقنع الاحتلال الفرنسي بإحكام قبضته على الجزائر، واحتوائها ماديا وجغرافيا بل سعى إلى احتوائها معنويا ،وروحيا فقرر إدماجها معلنا بأنها لا تعدو أن تكون قطعة من فرنسا ، وقد كان عليه أن يغير لغتها العربية باللغة الفرنسية ، ويعمل على اقتطاعها من العالم الإسلامي ، ويعلن بذلك موت الجزائر العربية المسلمة وميلاد الجزائر الفرنسية ، وقد سعت فرنسا إلى اقناع الشعب الجزائري بأن الجزائر خرافة وانه لا وجود لأمة اسمها الأمة الجزائرية في التاريخ ، كما عملت على إثارة النعرات الطائفية والعرقية واللغوية كالأمازيغية لتخلق بدائل للانتماء الأصلي إلى الجزائر العربية المسلمة .

 ولقد أدرك ابن باديس بفطنته وذكائه ما تسعى إليه فرنسا فصاح في وجه الزاعمين بموت الجزائر العربية المسلمة أن الجزائر لم تزل حية وستبقى حية على الرغم من احتلالها، وعلى الرغم من محاولات المسخ والتشويه التي طالتها فالجزائر ستبقى حية ما دامت تحافظ على لغتها العربية ودينها الإسلامي الحنيف (33).

 ومن هنا أخذ ابن باديس على عاتقه مهمة تذكير الشعب مرارا وتكرارا بالشعور بالوطن وبحدوده وتاريخه ولغته العربية وانتمائه العربي الإسلامي مؤكدا للأعداء أن الجزائر حقيقة ثابتة لا يمكن للاحتلال إنكارها .

 وقد أكد ابن باديس على أن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام فكونوا عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام مؤكدا بذلك على وحدة الجزائريين وداعيا للمحافظة عليها .

 ولما دعا بعض النواب وغيرهم إلى الاندماج التام مع فرنسا ، وادعى بعضهم أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها أثرا، وقال بعضهم: فرنسا هي أنا ، كتب الشيخ قائلا:" إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها وفي أخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري" (34).

**5- السياسة :**

 لقد كان ابن باديس حريصا على كشف وفضح ممارسات الاستعمار القذرة وبيان خطورتها على الأمة الجزائرية وكل أمة تمنى بالاستعمار، وقد راح يجسم آفات الاستعمار المهلكة ويلهب نار الوطنية في الصدور بخطبه الحماسية الملتهبة ومقالاته السياسية الهادفة التي كان ينشرها في (المنتقد) و(الشهاب) (35) .

 وهدف ابن باديس البعيد من وراء مشروعه الإصلاحي السياسي وما سبقه من إصلاح في المجالات السابقة هواستقلال الجزائر، ففي أوائل سنة 1940م قبل وفاته كان قد صرح في اجتماع خاص مقسما فقال :" والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتها) وكان يرمي من وراء ثورته وعمله إلى تحقيق الاستقلال فبمناسبة رجوع رئيس حزب الشعب "مصالي" من باريس وإعلانه طلب الاستقلال التام سنة 1936م كان جماعة من أنصار حركته جالسين معه فقال :" وهل يمكن لمن يشرع في تشييد منزله أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال" (36) **.**

 وقد قصر ابن باديس جهده على إصلاح المجتمع الجزائري مع أن العالم الإسلامي كان بحاجة أيضا إلى إصلاح في مجالات متنوعة؛ لكنه أراد أن يركز الجهود في الجزائر ويدع لغيره غيرها وهذا أدعى لنجاحه.

**خامسا : منهج ابن باديس في الإصلاح :**

 لقد حرص ابن باديس وهو يصول ويجول في ميادين الإصلاح العديدة على التخلق بأخلاق الإسلام فكان مدرسة أخلاقية ، فقد كان متسامحا، ولينا ورقيقا في معاملاته ، وكان يعفو عند المقدرة ، وكان رزينا ومتأنيا ، ومتفائلا، وصارما في الحق وقد رسمت هذه الصفات معالم المنهج الإصلاحي عند ابن باديس .

 فلم يكن عبد الحميد بن باديس متزمتا ومتشددا يميل إلى الزجر والإغلاظ في القول ، بل كان مرنا ولينا في معاملته مع تلامذته ، فقد كان يعاملهم كأبناء وكان يودعهم فردا فردا عندما يعودون إلى قراهم أو بلادهم ، لقد كان ابن باديس يؤمن إيمانا راسخا أن إصلاح النفوس لا يكون إلا بالتواضع والمودة (37) .

 وقد أظهر ابن باديس أنه صاحب أخلاق رفيعة من خلال حادثة محاولة اغتياله فهو عندما دبر محركوا الطرقية أمر اغتياله فأحبط الله تدبيرهم، وفشلت محاولة اغتياله لم يفكر في الانتقام لنفسه، بل عفا عن هذا الذي أرسل لاغتياله .

 ولقد كان ابن باديس متفائلا باقتراب ساعة الفرج ، وكان تفاؤله نابعا من ثقته المطلقة في الله ، وقدرته على إخراج الشعب الجزائري من محنته ، ولم يكن التفاؤل عنده ضربا من الأمل الساذج أو طلبا للمحال .

 وكان ابن باديس شجاعا وصارما وشديدا وعنيفا في طلب الحق ، ومن جملة مواقفه الصارمة موقفه الصارم من دغوة الصلح بين جمعية العلماء المسلمين وبين الطرقية عندما تقدم أحد الوسطاء بشروط الصلح فصرح ابن باديس بأنه لا يمكن أن يقبل الصلح مع جماعة تطلب إليه أن يحلل حراما ويحرم حلالا ثم هو صلح مشروط بشروط تتلخص في أن الطرق الصوفية تطلب على لسان الوسيط إلى جمعية العلماء أن تقر البدع والمنكرات ، وأن تسكت عنها، وأن تثبت الضلال ، وأن تحرم استخدام النظر العقلي والاستدلال .

**سادسا : وسائل الإصلاح عند ابن باديس :**

 اتخذ ابن باديس من القرآن والسنة وسيلة لتحقيق مشروعه الإصلاحي إيمانا منه بأنه لا يوجد خيرا منهما لإصلاح البشر، فعن أهلية القرآن لإصلاح البشر يقول عز وجل :" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا" (38)، ويقول سبحانه وتعالى :" يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (39)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :" إن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة"(40).

 ولقد كان القرآن الكريم هو محور الإصلاح للمجتمع والتربية التي يتلقاها النشء ، وبشأن السنة أسس ابن باديس في أثناء رئاسته لجمعية العلماء المسلمين صحيفة (السنة النبوية المحمدية) لتنشر على الناس ما كان عليه النبي من الهدي في أقواله وأفعاله وأحواله حتى يهتدي المسلمون به ، ويكونوا للناس قدوة (41).

 كما اتخذ ابن باديس من التربية والتعليم وسيلة لتنفيد مشروعه الإصلاحي ، وقد أنشأ من أجل ذلك المدارس الحرة ، والنوادي والمنظمات الثقافية، وظل طوال عمره يلقي الخطب والمحاضرات ، وينشر البحوث والمقالات ويلقي الدروس في مختلف العلوم الدينية واللسانية والعقلية، وتواصل تفسيره للقرآن الكريم على الطريقة السلفية خمسا وعشرين سنة ، وكان ختمه حدثا تاريخيا مشهودا سيظل مفخرة من مفاخر الأمة الجزائرية ، وعنوانا بارزا على جهاد الإمام في ميدان القرآن بالخصوص(42) .

**الخاتمة :**

 والذي يمكننا استنتاجه والتأكيد عليه أخيرا هو أن الإصلاح عند ابن باديس هو عملية شاملة متكاملة ، فهو يرى أن سبب الضعف والتدهورالإجتماعي يعود أساسا إلى عدم تطبيق الإسلام ، وإلى ابتعاد المسلم عن الحقيقة القرآنية ، والحقيقة القرآنية هي حقيقة كونية شمولية متكاملة تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

 لقد كان منطلق ابن باديس في علاج ضعف أمته دينيا ، بعدما أدرك أن ضعفها هو بسبب بعدها عن جوهر الدين ، وأن بعدها هو بسبب بعد الدين عن الواقع بفعل ما ألحق به من بدع وضلالات ، عملت الطرقية على نشرها والتمكين لها في المجتمع الجزائري ، وقد حالت هذه البدع دون أداء الدين لوظيفته الاجتماعية فبدا غير قادر على مواكبة الواقع وتغيراته .

 لقد آمن ابن باديس أن الإصلاح الديني هو المنطلق في كل تغيير اجتماعي كما آمن بأن التربية وإصلاح النفوس هي أفضل وسيلة لتحقيق النهضة الشاملة في المجتمع ، فكان لابد من العمل على تحرير النفوس والضمائر، وهذا من منطلق أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

 وبدعوته إلى ضرورة العودة إلى الدين في منابعه الأولى يكون ابن باديس قد أثبت ذلك الاتصال بين حركته الإصلاحية وتلك الحركات التي قادها محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد اقبال ، وهي كلها حركات تنادي بالعودة إلى الإسلام في صورته الأولى، وفي هذا دلالة على الوحدة الفكرية التي تجمع بين المغرب والمشرق الإسلامي، والتي تأصلت جذورها لتبقى حية على الرغم من المحن والنكسات ومحاولات الفصل والتفريق التي تعرض لها العالم الإسلامي .

 وإنصافا لابن باديس نقول بأنه قد عاش للجزائر وتفاعل معها ونذر حياته لخدمتها، وحرص على أن يكون هو الجزائر في عقيدتها واسلامها في لغتها وعروبتها وثورتها على الظلم وضمئها إلى الحرية ، فلتحرص الجزائر على أن تكون ابن باديس كما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي .

**الهوامش:**

1- عمارالطالبي: آثارابن باديس، م1، الشركة الجزائرية ، ط3، 1999م، ص76وما بعدها .

2- ابن منظور لسان العرب ، دار صادر ، بيروث ، ط1، 1900، ص516-517.

3- عبد الحميد بن باديس : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ،الجزائر، ط1، 1982، ص107 .

4- عمار الطالبي: آثار ابن باديس ، م3، الشركة الجزائرية، ط3،1997م ، ص 24.

1. محمد بهي الدين سـالم : ابن بـاديس فـارس الإصـلاح والتنويـر، دار الشـروق القاهرة ، ط1،1999، ص18 .
2. المرجع نفسه ، ص82
3. المرجع نفسه ، ص18- 19 .

8- محمد الصالح الصديق : الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه ، دار البعث ، قسنطينة ، ط1، 1983، ص19.

9- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، 1435هـ ، التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس، الرياض ، ص91.

10- عمارالطالبي: آثار ابن باديس، م4، الشركة الجزائرية، ط3، 1999م، ص361.

11- محمد بهي الدين سالم ، مرجع سابق ، ص 86.

12- من تقديم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي لكتاب تفسير ابن باديس .

13- محمد الصالح الصديق :مرجع سابق ، ص20.

14- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، مرجع سابق ، ص101.

15- عمارالطالبي: آثارابن باديس، م2، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م، ص 55.

16- المرجع نفسه والصفحة نفسها .

17- عمارالطالبي: آثار ابن باديس، م1، الشركة الجزائرية، ط3، 1997م، ص 56.

18- محمد الصالح الصديق : مرجع سابق ، ص20 .

19- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان،مرجع سابق ، ص107.

20- عمارالطالبي : آثارابن باديس ، م3، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م ص 20.

21- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان : مرجع سابق ، ص109.

22- عمارالطالبي: آثارابن باديس، م1،الشركة الجزائرية، ط3، 1997م ، ص 418.

23- المرجع نفسه ، ص 272.

24- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان:مرجع سابق ، ص 112.

25- المرجع نفسه والصفحة نفسها .

26- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان :مرجع سابق ، ص113.

27- عمارالطالبي: آثار ابن باديس ، م4، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م ص 364- 365.

28- عمارالطالبي: آثارابن باديس ، م2، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م ، ص 299.

29- عمارالطالبي : آثارابن باديس ، م3، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م ص 89.

30- الشهاب ج 8 ، م11، غرة شعبان 1354هـ =نوفمبر1935م.

31- مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان:مرجع سابق ، ص117.

32- (مازن صلاح مطبقاتي : عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي دارالقلم ، دمشق ،ط2، 1999 ص62 .

33- محمد الصالح الصديق : مرجع سابق ، ص21.

34- عمارالطالبي : آثارابن باديس ، م1، الشركة الجزائرية ، ط3، 1997م ، ص 309.

35- محمد الصالح الصديق : مرجع سابق ، ص22.

36- عمارالطالبي: مرجع سابق ، م1، ص **88-89 .**

37- محمد بهي الدين سالم :مرجع سابق ، ص 77-78 .

38- محمد بهي الدين سالم : مرجع سابق ، ص79.

39- الإسراء ، الآية 9.

40- المائدة ، الآية 16.

41- أخرجه مسلم : برقم867 .

40- عمارالطالبي : مرجع سابق ، م3، ص 25.

42- محمد الصالح الصديق :مرجع سابق، ص21-22 .